مكانة العقل في القرآن
وأثره في التفسير

د. عماد طه أحمد الراعوش
قسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكانة العقل في القرآن وأثره في التفسير

د. عماد طه أحمد الراعوش
قسم القرآن وعلومه – كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم هديا للناس يسيرون عليه في كل شؤون حياتهم التشريعية العملية والفكرية، ويسر لهم فهمه والاستنباط منه وكلف النبي صلى الله عليه وسلم بتفسيره حسب ما تقتضي الحاجة. وكان صلى الله عليه وسلم هو المرجع في تفسير القرآن الكريم يبيّن ما يحتاج إلى بيان ويجيب الصحابة عما يشكل عليهم. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم صار الصحابة يلجؤون إلى القرآن نفسه ليجدوا فيه حكم ما يحتاجون إليه من المستجدات، وإلى ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، فما وجدوه أخذوه، وما لم يجدوه لم يكن بإمكانهم إلا أن يعملوا فيه عقولهم ليستنبطوا له حكما ما مستعينين بما في القرآن نفسه ثم بما اثر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

في حكم هذه الطريقة في التفسير نشأت مدارس، منها من يجيز ومنها من يمنع؛ ومنها من يفصل. ولمناقشة هذه المسألة المهمة لا بد من الرجوع إلى أصل الخلاف وهو موقف القرآن من العقل، والعلاقة بينه وبين النقل. لكن حتى في هذه لم يتفق المسلمون على رأي واحد؛ ولعل الخلاف في هذه هو سبب الخلاف في تلك. انقسم المسلمون في هذه القضية إلى فرق منها من يقول بأن العقل يستقل عن الوحي، ومنها من يقول بأنه لا يستقل وليس له إلا أن يتبع الوحي، ولإثبات مذهبه استدل الفريق الأول بأدلة غاية ما تدل عليه أهمية العقل، واعتباره مصدراً من مصادر المعرفة، دون أي إشارة إلى أنه يستغني عن الوحي، واستدل الفريق الثاني بأدلة غاية ما تدل عليه بيان أهمية الوحي دون أي إشارة إلى أن الوحي يستغني عن العقل.

ومع بالغ تقديري للعلماء الأجلاء الذين قالوا بالقولين إلا أن جمهور المسلمين لا يرون هذا الرأي ولا ذاك، ويجدون العدل والتوسط الاتجاه نحو نقطة التوازن، النقطة التي يتلاقى فيها الوحي مع العقل، ويكمل كل منهما الآخر. فلا العقل يستقل عن الوحي، ولا الوحي يهمل العقل، ولكلٍ منهما ميدان يخوض فيه وفق منهج القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

فإذا تقرر هذا المبدأ أصبح من السهل إيجاد علاقة معتدلة بين التفسير بالنقل والتفسير بالعقل، وها هنا فرَّق العلماء بين نوعين من التفسير العقلي: واحد مقبول يقوم على النقل أولا ثم على النظر والاجتهاد والاستدلال وفق ضوابط الاجتهاد. وآخر مرفوض يقوم على الهوى والتعصب والانتصار للرأي ولا يستند إلى دليل نقلي أو لغوي أو عقلي، وعليه وجدت أن المنهج الأعدل هو التوسط بين الموقفين، بإجازة الأول ومنع الثاني؛ لأن منع هذا المصدر من التفسير مطلقا غير جائز بل غير ممكن؛ إذ كيف يمكن الاقتصار على المنقول مع تجدد الحياة والحاجة إلى استنباط الأحكام لهذه المستجدات.

المقدمة:

الحمد لله القائل في محكم كتابه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٦٨) والصلاة والسلام على نبيه القائل: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا كتاب الله وسنتي".[1] وبعد:

فإن من أعظم نعم الله على خلقه أن أنزل عليهم القرآن الكريم فيه هدايتهم إلى الحق، وتنظيم أمورهم في سائر مناحي حياتهم. وإن من تمام هذه النعمة أن حفظ الله قرآنه من التبديل، ليكون مرجعا هاديا للناس إلى يوم الدين، وما على طالب الهداية إلا أن يقرأه ويفهمه ويتدبر معانيه ليجد فيه خير الدنيا والآخرة، ولقد يسر الله سبحانه وتعالى قرآنه للذكر وللفهم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧)، وكلف نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبيّن للناس ما يحتاج إلى بيان ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) فتمت النعمة وكَمُل الفضل.

غير أنه صلى الله عليه وسلم كان يبيّن للناس ما دعت الحاجة إلى بيانه، وكان هو المرجع الذي يرجع إليه الصحابة إذا أشكل عليهم شيء من القرآن. فلما انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ما كان بإمكانهم هم والمسلمين من بعدهم إلا أن ينظروا في القرآن مستعينين بما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وبما هدته إليه عقولهم، وصار تفسيرهم هذا يسمى التفسير العقلي للقرآن الكريم.

وقف علماء المسلمين من هذه الطريقة في التفسير مواقف متعددة بين مانع ومجيز ومتوسط. ونشأت إثر ذلك مدارس فكرية متعددة أثرية وعقلية ومدرسة ثالثة جمعت بين المدرستين، وقد عزمت بعد عون الله أن أناقش في هذا البحث هذه القضية لأهميتها وكونها تتعلق بالقرآن وفهم خطاب الشارع.

ومما سيجعل لهذا البحث أهمية خاصة أنه يقدم دراسة تأصيلية للموضوع من خلال تحليل موقف كلِ فريقٍ، والوقوف على أصل فكرته ومنشئها ولعل ذلك هو الأصل في هذا الخلاف، وهي موقف كل فريق من العقل من حيث كونه مصدرا من مصادر المعرفة

---

(١)رواه مسلم بن الحجاج، (٢٦١ هـ)، في صحيح مسلم، ترقيم محمد بن نزار وهيثم بن نزار لبنان، دار الأرقم، الأولى ٩٩٩، رقم ١٧٤، ص ٥٦٤.

أولا، ثم من حيث علاقته بالوحي ثانيا، ودور كل منهما في الوصول إلى المعرفة عامة وفهم كلام الله سبحانه خاصة، وهذا الجانب لم يعرض له كثير ممن ألفوا في هذا الموضوع على كثرة ما أُلِّف، وعلى أهمية هذا الأصل بالنسبة للموقف من التفسير العقلي.

فإذا وصلت إلى موقف معتدل يبين دور العقل في فهم القرآن وعلاقته بالوحي أستطيع بعدها أن أبني عليه حكم استخدام العقل في التفسير.

خطة البحث

التمهيد وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقصود من العقل

المبحث الثاني: المقصود من التفسير

المبحث الثالث: المقصود من التفسير العقلي

الفصل الأول: موقف القرآن من العقل وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العقل في القرآن

المبحث الثاني: استخدام القرآن للمنهج العقلي والدعوة إليه

المبحث الثالث: العلاقة بين العقل والوحي في الفكر الإسلامي

الفصل الثاني: موقف العلماء من التفسير العقلي وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نشأت التفسير العقلي

المبحث الثاني: موقف العلماء من التفسير العقلي

الفصل الثالث: ضوابط التفسير العقلي وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: العلوم التي يحتاجها المفسر

المبحث الثاني: منهج التفسير العقلي

المبحث الثالث: شروط المفسر

المبحث الرابع: التفسير العقلي المرفوض

* * *

التمهيد:

المبحث الأول:

المقصود من العقل

أولا: في اللغة: قيل في تعريف العقل: إنه مصدر عَقَل يعقل عقلاً، والرجل العاقل هو الجامع أمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، والعقل التثبت في الأمور، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه، وقيل العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان عن سائر الحيوان... وعقل الشيء يعقله عقلاً: فهمه... والعقل الحجر والنُّهى: ضد الحمق وهو التثبت في الأمور[1].

وفي القاموس المحيط: " العقل هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرّين لأمور أو لقوة بها يكون التمييز بين القبيح والحسن، ولمعان مجتمعه في الذهن تكون بمقدمات تستتب بها الأعراض والمصالح... (وهو) نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية".[2]

ثانيا: في الاصطلاح:

يرى ابن تيمية: " أن العقل يطلق على أربعة معان أحدها: علوم ضرورية يفرق بها بين المجنون الذي رفع القلم عنه، وبين العاقل الذي جرى عليه القلم فهذا مناط التكليف.

والثاني: علوم مكتسبة تدعو الإنسان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره.

الثالث: العمل بالعلم يدخل في مسمى العقل أيضا بل هو من أخص ما يدخل في اسم العقل الممدوح.

وهذان النوعان لم ينازع الأولون في وجودهما ولا في أنهما يسميان عقلا ولكن قالوا كلامنا في العقل الذي هو مناط التكليف للفرق بين العاقل والمجنون وهذان لا يدخلان في ذلك فالنزاع فيهما لفظي.

---

(١) ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، حرف اللام، مادة عقل، جـ ٩، ص ٣٢٦.

(٢) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، فصل العين باب اللام، جـ ٤، ص ١٨، ١٩.

الرابع: الغريزة التي بها يعقل الإنسان فهذه مما تتوزع في وجودها فأنكر كثير من الأولين أن يكون في الإنسان قوة يعلم بها غير العلم أو قوة".[1]

وعرف ابن سينا العقل فقال: يقال عقلٌ لصحة الفطرة في الإنسان، فيكون حَدُّه أنه قوة بها يوجد التمييز بين الأمور القبيحة والحسنة. ويقال عقل لما يكسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية فيكون حَدُّه أنه معان مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها المصالح والأغراض. ويقال عقل لمعنى آخر، وحَدُّه انه هيئة محمودة للإنسان في حركاته وسكناته وكلامه واختياره.[2]

* * *

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني أبو العباس، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيق موسى سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص٢٦٠.

(٢) ابن سينا، الحسين بن عبد الله، تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، طبعة دار الخان الميرزا (مطبعة هندية)، ١٩٠٨، ص٥٠.

المبحث الثاني:

المقصود من التفسير

أولا: في اللغة: قال صاحب لسان العرب: " الفَسْرُ: البيان، فَسَرَ الشيء يَفْسِره ويَفْسُره فَسْرا. وفَسَره أبانه والتفسير مثله... والفَسْرُ كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ".[1] وفي القاموس المحيط: " الفَسْرُ الإبانة وكشف المغطى كالتفسير... تقول فَسْرتُ الفرس: عريته ".[2]

وعليه فإن التفسير يعني الكشف والإبانة سواء الكشف الحسي كما قال صاحب القاموس فَسْرُ الفرس تعريتها، أو الكشف المعنوي كما قال صاحب لسان العرب، والتفسير كشف المراد عن اللفظ.

ثانيا: في الاصطلاح: عرفه الزركشي فقال: " التفسير علم يُعرف به نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكيها ومدنيها، محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، (ثم قال) وزاد قوم فقالوا: وعلم حلالها وحرامها ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها وأمثالها وغيرها".[3] غير أنه يؤخذ على هذا التعريف أنه قام على بيان طائفة من العلوم المندرجة في موضوع التفسير لكنه ترك شيئا منها كإعجازه وحقيقة ومجازه ومحكمه ومتشابهه وهذا ليس شأن التعريفات، فهو إما أن يحصر هذه الفروع وهذا غير ممكن، أو أن يذكر شيئا منها على سبيل التمثيل وبهذا لا يكون التعريف جامعا مانعا.

وعرفه أبو حيان فقال: " هو علم يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاته، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك ".[4] لكن يؤخذ على هذا التعريف أنه غير جامع ولا مانع لقوله وتتمات لذلك

---

(١) ابن منظور، جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، تحقيق علي شيري، إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٢/١٩٩٢، ٥/ ٥٥.

(٢) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر (دار الجيل) بيروت ٢/ ١١٤.

(٣) الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب،بيروت، ط ٢٠٠١، ٢/ ١٦٤.

(٤) أبو حيان، محمد بن يوسف(٧٥٤هـ)، البحر المحيط، دار الفكر، ١٩٩٢،١/ ٢٦.

إذ يمكن أن يدخل فيه ما ليس منه أو يخرج منه ما هو فيه. ويؤخذ عليه أنه ذكر منه ما يتعلق بكيفيات النطق وهذا منه ما لا دخل له في التفسير كالإمالة والمد والقصر وغير ذلك مما ليس له أثر في التفسير.

وبمعالجة هذين التعريفين ومراجعة غيرهما من التعريفات يمكن أن يقال التفسير: هو الكشف عن مراد الله سبحانه وتعالى من آيات قرآنه الكريم، واستنباط ما يتعلق بها من علوم تعين في الكشف عن هذا المراد.

* * *

المبحث الثالث:

المقصود من التفسير العقلي

هنالك مصطلحات مرادفة لمصطلح التفسير العقلي هي التفسير بالرأي الذي يقابل التفسير بالمأثور، والتفسير بالدراية أو الاجتهادي الذي يقابل التفسير بالرواية، والمقصود من هذه المصطلحات: "تفسير القرآن بعد معرفة المفسر كلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته الناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر".[1] أي غير ذلك من جملة العلوم القرآنية والأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

في هذا التعريف بالإضافة لبيان المقصود من التفسير العقلي بيان العلوم التي يحتاجها المفسر. وقد ذُكِرَت في التعريف هذه القيود ليخرج بها منه التفسير العقلي المرفوض، وهو الذي يقوم على العقل وحده ولا يراعي ضوابط وشروط التفسير العقلي المقبول. وسأتحدث عنها لاحقا إن شاء الله.

* * *

(١) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، الطبعة الثانية، ١٩٧٦، ١/ ٢٥٥

الفصل الأول

موقف القرآن من العقل

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم ليكون منهجا كاملا متكاملا يسير عليه الناس في كل شؤون حياتهم التشريعية العملية والفكرية، من هنا لا نجد القرآن الكريم يركز على القضايا التشريعية والعبادات العملية فحسب، بل يركز أيضاً على القضايا الفكرية أعني طريقة التفكير وكيفية الوصول إلى الحقائق.

وبهذا رسم القرآن الكريم للناس منهج التفكير السليم، ولم يترك نظرية أو مذهباً شُغل فيه العقل الإنساني دون أن يبحث فيه ويضع أصوله العامة. كما أن جميع من شغل بالتفكير العقلي في الإسلام حاول أن يستند إلى القرآن لأن حقائقه شغلت كل نواحي الفكر، وأمدت كل فكر عقلي أو تجريبي بحقائق إما مؤيدة أو مخالفة له، وكان هو دائما مركز الدائرة.[1]

ليس القرآن كما صوره بعض أعدائه كتاباً يعيق النظر العقلي، ويدعو إلى التسليم الإيماني على الدوام بل هو على العكس من ذلك، إنه يدعو إلى التفكير العقلي ويقوم عليه.

وليس ذلك بالمقارنة مع المناهج العقلية البشرية فحسب، بل بالمقارنة أيضا مع النزعات العقلية في كتب الأديان التي اكتفت بمجرد إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو التمييز، حتى إن هذه الإشارات يلمح منها أحيانا نوع من الزراية بالعقل والتحذير منه لأنه مزلة العقائد.[2]

* * *

(١) النشار، علي سامي، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢، ص٣.

(٢) العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، دار النهضة، القاهرة، ص٣.

المبحث الأول

العقل في القرآن

العقل في القرآن يطلق على معنيين:

الأول: " القوة المتهيئة لقبول العلم كقوله صلى الله عليه وسلم: **(ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل)**[1]، ومن هذا المعنى كل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل.

الثاني: العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة (المقصودة في المعنى الأول) كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٤٣). ومن هذا المعنى كل موضع ذم الله فيه الكفار لأنهم لا يعقلون كقوله تعالى: ﴿ **صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾(البقرة: ١٧١) ".[2]

ويمكن تصنيف المواضع التي تحدث القرآن فيها عن العقل في ثلاث فئات[3]:

أولا: آيات تحدثت عن العقل بلفظ العقل أو بصيغ مشتقة منه، وهي ثلاثة أصناف:

أ – آيات تحث على إعمال العقل، وهي تخص إعمال العقل الوازع أو الملكة الفطرية التي تدرك ما يناسب الفكر السليم والفطرة الصحيحة.. العقل الذي ينظر إلى ما حوله من المسلّمات العقلية ويتعرف من خلالها على الحقائق. ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى:

---

(١) الأثر الذي أورده الراغب هنا ضعيف وقد أخرجه ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، في كتاب الموضوعات، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدنية المنورة، الطبعة الأولى ١٣٨٦/ ١٩٦٦، جـ١، ص ١٧٤، وقال: هذا حديث لا يصح. وقال العراقي، عبد الرحيم بن الحسين، في المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، على هامش علوم الدين للغزالي،دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى،١٤١٢/١٩٩٢، أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي هريرة، وأخرجه أبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين. انظر جـ١، ص ١٣٦. وانظر أيضاً، العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق أحمد القلاش،مؤسسة الرسالة،الطبعة الرابعة، ١٤٠٥/ ١٩٨٥، جـ١ ص ٢٧٥.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد أحمد خلف الله مكتبة الإنجلو مصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٠ ص٥١١.

(٣) فاطمة إسماعيل محمد، القرآن والنظر العقلي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٣ / ١٩٩٣.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢٤)

ب- آيات تثني على الذين يعملون عقولهم بأسلوب صحيح، ويتعرفون من خلالها على الحقائق، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٣). ج-آيات تذم الذين يعطلون عقولهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٢)

ثانياً: آيات تحثّ على استخدام العقل بألفاظ تدل على عمليات التعقل:

وهذه الألفاظ هي: التفكر والنظر والتدبّر والتفقّه والتذكّر والتبصُّر والاعتبار، والآيات هذه تتناول العقل الذي يحلل ويستخلص ويستنتج ويقارن، وهذه دعوة للإنسان إلى استخدام عمليات عقلية أكثر تطوراً من العمليات التي عَبّر عنها القرآن بمشتقات العقل، ومن أمثلة ذلك:

أ - الدعوة إلى التفكير

مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾ (الروم: ٨) والمقصود ألا يستدلون بأحوال أنفسهم على وحدانية الله؟ وهذه الوظيفة تعني في القرآن أن يستدل العقل بما في عالم الشهادة على ما في الغيب، أي يستدل بما يحسه من آثار قدرة الله على وجود الله.

ب- الدعوة إلى النظر

نحو قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) والنظر في هذه الآيات يعني تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص.[1] والنظر في القرآن ليس مجرد الإبصار الذي هو وظيفة العين إنما هو قياس المجهول على المعلوم عن طريق إبصار العين. ومعظم المواضع التي ذُكرت فيها عملية النظر الهدف منها التعرف على الله عن طريق إبصار آياته في الكون.

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ٧٥٨.

ج- الدعوة إلى التّدبّر

نحو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢) والتدبر في هذه الآيات هو التفكير في دُبُر الأمور[١]. وقد ورد هذا اللفظ في أربعة مواضع كلها يشير إلى مهمة العقل في الفهم العميق للقرآن.

د- الدعوة إلى التفقُّه

نحو قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام:٦٥) والفقه في هذه الآيات هو العلم بالشيء وفهمه، استعمله القرآن الكريم في مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق في العلم.[٢] والتوصل بعلم شاهد إلى غائب لهذا اعتبره أخص من العلم.[٣] وهذه الوظيفة من أكبر وأعمق وظائف العقل؛ لأنها لا تتوقف عند الإدراك والفهم فحسب بل تتعدى إلى الفهم الدقيق العميق المحيط المستقر، كما لا تتوقف عند إدراك حقيقة الأمور الظاهرة بل تتعداها إلى ما وراءها من غيبيات. وقد وصف الله الكفار بقلة الفقه حيث يقول:﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة:٨٧) لأنهم يدركون الغيبيّات ولا يؤمنون بها.

هـ- الدعوة إلى التذكُّر

نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٦٧). يعني ألا يذكر الجاحد للبعث أول خلقه فيستدل بذلك على إعادته؟ [٤] ومعنى ذلك أن يسترجع العقل ما في ذاكرته من معلومات سابقة عن الإنسان والكون، وعن الأمم السابقة، من أجل أن يستدل بها على الحقائق الدينية ويطمئن لها.

و-الدعوة إلى التبصر

كقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات:٢١) والمقصود بها الإبصار العقلي وهي وظيفة العقل لا وظيفة العين، يقول الراغب الأصفهاني: "يقال البصر لقوة القلب المدركة" [٥]، وتكون بالاستدلال بالمشاهد على غير المشاهد.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص٢٣٨، وابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، جـ٥، ص ١٧٣.

(٢) المراغي، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، جـ ٩، ص١٢.

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص٥٧٧.

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ٢٦٠.

(٥) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص٦٣.

ز– الدعوة إلى الاعتبار

يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف:١١١) "والاعتبار والعبرة: الحالة التي يُتَوَصَّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد".[١] يقول تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر:٢). وهي شبيهة بمعنى التذكّر، وقد تأتي أحياناً لاحقة لها.

ثالثاً: آيات تعبر عن العقل بألفاظ مقاربة له وهي:

أ– اللب

يقول تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٩) ولب كل شيء خالصه، واللب العقل[٢]، ولب الإنسان ما جُعِل فيه من العقل. وكل خطاب إلى ذوي الألباب في القرآن هو خطاب إلى اللب الذي هو العقل المدرك الفاهم.

ب– الحلم

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الطور:٣٢) أي عقولهم. وليس الحلم في الحقيقة هو العقل، ولكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل، والحلم هو الفهم والأناة وضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب. وقد يسمى العقل حلماً.[٣]

جـ – النُّهَى

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ (طه:٥٤) "والنُّهَى العَقْل يكون واحداً وجمعاً، والنُّهْيَةُ العقل بالضم سميت بذلك لأنها تَنْهَى عن القبيح، وذهب بعضهم إلى أن النُّهَى جمع نُهْيةٍ، والنُّهَى العقول والألباب".[٤]

د – الحجر

ورد في آيات منها: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ (الفجر:٥)، والحجر العقل، سمي حجراً لأنه يحجر (أي يمنع) الإنسان عن القبيح.[٥]

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ٤٨٠

(٢) الزجاج، إبراهيم السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي،عالم الكتب،بيروت،١٤٠٨/١٩٨٨، جـ١، ص٢٤٩.

(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٤) الزجاج، إبراهيم السري، معاني القرآن وإعرابه، جـ ٣، ص٣٥٩. وابن منظور، لسان العرب، جـ١٤، ص٣١٢.

(٥) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، جـ٥، ص٣٢١.

هـ – القلب

ورد في آيات منها: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الحج:٤٦)، والقلب هو الفؤاد أو أخص منه[1]. وقد أسند فعل العقل في هذه الآية إلى القلب.

* * *

(١) الفيروزأبادي، القاموس المحيط، جـ٢، ص١٢٣.

المبحث الثاني

استخدام القرآن للمنهج العقلي والدعوة إليه

ليس قولنا إن القرآن الكريم يدعو إلى التفكير العقلي ويقوم عليه مبالغة أو ادعاء، بل هو واقع وحقيقة لا شك فيها ولذلك مظاهر أذكر منها:

أولا: تكريم العقل والدعوة إلى إعماله.

"إن القرآن لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به، ولا تأتي الإشارة إليه غامضة ولا عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعه مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يُحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهماله عقله وقبوله الحجر عليه"[1].

ومما يدل على تكريم العقل والحث على استخدامه، كثرة تكرار الألفاظ الدالة على العقل والألفاظ الدالة على وظائف العقل في مقام التكريم سواء في سياق الحث على استخدامه أو ذم تعطيله. فمثلاً وردت مشتقات لفظة عقل تسعا وأربعين مرة، ووردت الدعوة إلى النظر العقلي مائة وتسعاً وعشرين مرة، والدعوة إلى التبصر مائة وثماني وأربعين مرة، والدعوة إلى التذكّر مائتين وتسعاً وستين مرة، بالإضافة إلى صيغ أخرى تحمل الحث على استخدام المنهج العقلي. فعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٨) هذه صفة الدعوة كلها هي دعوة قائمة على البصيرة التي تعني التعقل، تخاطب العقل وتأمره بالحركة المنضبطة ولا تتعارض معه، وإن ظهر للبعض أيٌّ تعارض فهو وَهْم لا حقيقة له. ولا شك إذاً في أن القرآن يدعو إلى المنهج العقلي في البحث عن الحقائق.

ثانيا: ذم الذين يعطلون عقولهم:

يذم القرآن من يعطلون عقولهم، ويبالغ في الذم حتى ينزلهم إلى درجة الدواب، بل وأبلغ من هذا الذم يجعلهم من أرذل وأشر الدواب. يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) العقاد، التفكير فريضة إسلامية، ص٣.

﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ (الأنفال:٢٢). فالكفار بتعطيلهم عقولهم وصلوا إلى درجة أدنى من درجة الأنعام.

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾(الأعراف:١٧٩). فالكفار ليسوا كالدواب بل أضل منها، لأنهم منحوا عقولا تميزهم عن الدواب فأهملوها بإرادتهم، وبذلك صاروا أضل من الدواب التي لم تمنح هذه النعمة ابتداء بإرادة الله لا بإرادتها.

ثالثا: استخدام القرآن للمنهج العقلي

القرآن قبل كل شيء كتاب عقيدة وشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وفي هذا الإطار عرض لكثير من القضايا العقلية وناقشها بأسلوب عقلي لا تجد له مثيلاً لا في الشكل ولا في المضمون، ومما يدل على ذلك الأثر العظيم الذي أثَّره على عقول العامة والخاصة من العقلانيين، وقد شكل طرح قضايا الدين الأساسية مثل قضية وجود الله ووحدانيته الأساس الذي انطلقت منه المناهج العقلية التي عرفها المسلمون. خذ مثلا في التدليل على الوحدانية قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:٢٢)، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (المؤمنون:٩١). في هاتين الآيتين دليل عقلي محكم مفاده أن الله واحد، إذ لو وجد لهذا الكون إلهان ذوا قدرة وإرادة مطلقة فلا بد وأن يختلفا ولو اختلفا لتدافعا ولفسد بتدافعهما الكون، لكن الواقع أن الكون منتظم يسير وفق ناموس دقيق وهذا يعني بالضرورة أن الله واحد لا شريك له، وهذا هو قياس العكس، حيث استدل القرآن على الوحدانية ببطلان نقيضها.

وبهذا الأسلوب العقلي يستخدم القرآن الشاهد ليدل على الغائب، يستخدم النشأة الأولى لإثبات إمكان البعث كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس:٧٩)، وبهذا الأسلوب يثبت القرآن كل قضايا الدين الأساسية.

رابعا: إزالة الحواجز التي تعيق العقل أو تعطله

وهذه الحواجز هي:

أ – التقليد الأعمى

نبّه القرآن إلى أنه ليس من المنطقي أن تكون العادة الموروثة مقياسا للحق، وليس من الحق إذا قيل للناس: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ (البقرة:١٧٠) أن يقولوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (البقرة:١٧٠) لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠).[١] قال الألوسي: وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر، وأما اتباع الغير في الدين بعد التعلم بدليل فإنه محض اتباع في الحقيقة لما انزل الله تعالى وليس من التقليد المذموم في شيء[٢].

كما أن القرآن وهو يؤكد على نبذ التقليد وإلقاء المسؤولية على الآخرين يؤكد على المسؤولية الشخصية، يقول تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم:٣٩).

ب: اعتماد الظن بدلاً من الدليل العقلي

الحكم بالظن يخالف المنهج العقلي، لأن الأخير يهدف إلى الوصول إلى الحق ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم:٢٨). يقول الله في وصف الكفار: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١١٦)

وفي العقائد لا بد من القطع واليقين، يقول النسفي: " إنما يعرف الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم".[٣]

جـ: اعتماد الهوى بدلا من العقل

إن العقل يقود إلى الحق وإن كان شاقا على النفس، أما الهوى فانه يقود إلى ما يرضي النفس وان لم يكن حقا.والحكم لا بد له من دليل يثبته والظّن لا يصلح أن يكون مثبتاً ولا نافياً. يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص:٥٠). أي لا أحد أضل منه، بل هو الفرد الكامل في الضلال. يقول

---

(١) محمود، عبد الحليم، التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف،مصر ص٤٠،٤١

(٢) الألوسي، محمود أفندي بن عبد الله ، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، لبنان، ١٤٠٨/ ١٩٨٧، م١، جـ ٢، ص٤١، بتصرف.

(٣) النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت،الطبعة الأولى، ١٤٤٥/١٩٩٥، جـ٢، ص٦١٥.

الشاطبي: " إن كل عمل كان المتبع فيه الهوى بإطلاق، من غير التفات إلى الأمر أو النهي والتخيير فهو باطل لأنه لابد للعمل من حامل يحمل عليه وداع يدعو إليه".[1]

* * *

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق خالد عبد الفتاح شبل،مؤسسة الكتاب الثقافية،ط ١٩٩٩، جـ ٢، ص ٤٧٣.

المبحث الثالث

العلاقة بين العقل والوحي في الفكر الإسلامي

نشأ الخلاف في تحديد العلاقة بين العقل والوحي عن الخلاف في تحديد مصادر المعرفة، وتحديد دور كل مصدر ومقامه من المصادر الأخرى. وعند استعراض هذه الاتجاهات نجد بعض فلاسفة المسلمين أمثال ابن سينا، والكندي والفارابي على طرف. وهؤلاء تأثروا بشكل كبير بفلاسفة اليونان، وساروا على نهجهم وقالوا بأن العقل يستقل بالمعرفة. وعلى الطرف المعاكس تماماً كما سيأتي بيانه نجد الظاهرية يقولون بأن مصدر المعرفة الوحيد هو الوحي، أما العقل فليس له سوى فهم أحكام الوحي وتنفيذها. وبين هذين الطرفين تجد باقي علماء المسلمين، بعضهم أقرب إلى الفلاسفة، وبعضهم أقرب إلى الظاهرية، وبعضهم توسط بين الرأيين وقال إن العقل لا يستغني عن الوحي، والوحي لا يهمل العقل، ولكل دور يقوم به وموضوع يخوض فيه.

وبعد هذا الإيجاز نفصل على النحو الآتي:

الفلاسفة

أصحاب هذا المنهج يعتمدون على العقل مطلقا في الوصول إلى المعرفة. ومبادئ العقل عندهم قائمة بذاتها غير مرتكزة إلى مبادئ خارجية كالإيمان المسبق بالوحي مثلا.[1] ومن أصحاب هذا الرأي فلاسفة المسلمين كما قلت أمثال الفارابي، وابن سينا، والكندي. لكن الفلاسفة المسلمين جميعا يؤمنون بالوحي **(القرآن)**، وإلا لما كانوا مسلمين، غير أنهم لم يكونوا ليسلكوا في بحثهم عن الحقيقة غير طريق العقل، ولا ليبنوه إلا على قواعده، ومن بعد ذلك يعودون إلى الوحي، وسيجدونه حتما مؤيدا للعقل، هذا لأنهم يعتبرون الوحي حقا وأحكامه موافقة للعقل لا محالة، ولو وقع خلاف بين العقل والوحي لا يترددون في تأويل الوحي لما يوافق العقل.

المعتزلة

هؤلاء يقولون بأن العقل هو مصدر المعرفة وأنه يمكن أن يتوصل بنفسه مستقلا إلى معرفتها. إلا أنهم يسندون مبادئ العقل الأولى إلى الوحي، ويعتبرون الوحي هو الأساس

---

(١) عزقول، كريم، العقل في الإسلام، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٤٦، ص ١٥، ١٦.

الذي ثبت به العقل والأصل الذي أنشأ قواعده [1]. يقول القاضي عبد الجبار: "إن الكتاب هو الأصل من حيث إن فيه التنبيه على ما في العقول"[2] يقصد التنبيه على مقام العقل والحث على استخدامه. وعليه فإن هؤلاء آمنوا بالقرآن وآمنوا بناء عليه بأن الله خالق والكون مخلوق، ومن ثم أخذوا يحاولون البرهنة على أن الكون مخلوق – بناء على مبدأ وجوب الحدوث واستحالة القدم – ببراهين عقلية مجردة ودون أن يلتفتوا إلى أدلة القرآن الكريم العقلية؛ لأن العقل عندهم يستطيع أن يصل إلى هذه المعرفة مستقلا.

الظاهرية

اتفق أصحاب هذا الرأي على أن العقل لا يستقل بالمعرفة بحال من الأحوال. وذهبوا إلى أن الوحي مقدم على العقل دائماً. وأن الوحي يفهم بظاهره وأن قول خالق العقل مقدم، لأن العقل البشري ناقص وعرضة للوصول إلى أحكام خاطئة خلافاً للوحي النازل من خالق الخلق الحق المطلق.

لكن لا يفهم من هذا أن أصحاب هذا المذهب ينكرون دور العقل، وإلا ماذا يقولون في النصوص القرآنية الكثيرة التي تشيد بالعقل وتأمر بإعماله؟ بل هم يؤمنون بالعقل ولهم آراء عقلية فريدة كمثل بعض آراء ابن حزم الظاهري في نقاش خصومه. لكنهم جعلوا للعقل دوراً ثانويا مقصوراً على فهم الوحي

واستنباط أحكامه. ففي الإجابة على سؤال مفاده هل الأشياء في العقل قبل ورود الشرع على الحظر أو على الإباحة؟ قال: "جميع أهل الظاهر وطوائف من أهل أصحاب القياس ليس (للأشياء) حكم في العقل أصلا لا بحظر ولا بإباحة، وإن كل ذلك موقوف على ما ترد به الشريعة، (ثم قال) وهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره واحتج من قال بحظرها بأن قال الأشياء كلها ملك لله عز و جل".[3] ويقول في العقل: "إنما (في العقل) تمييز الموجودات على ما هي عليه وفهم الخطاب فقط".[4]

---

(١) عزقول، العقل في الإسلام، ص ١٦، ١٧

(٢) القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن أحمد، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد،الدار التونسية،الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ ص ١٢٧

(٣) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ. ٥٢/١

(٤) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ٥٢/١

والخلاف بين هذا الفريق وسابقيه يظهر عند تعارض العقل والوحي، إذ يقدم هؤلاء ظاهر الوحي ويردون حكم العقل وإن كان ظاهر الوحي يحتمل التأويل، لأنهم يعتبرون الوحي مراداً بظاهره.

الغزالي

يرى الغزالي أن العقل والوحي متلازمان ولا يمكن الاعتماد على أحدهما مستقلاً للوصول إلى المعرفة. يقول رحمه الله: " العقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر"[1]، ويقول: " اعلم أن العقل لا يهتدي إلا بالشرع والشرع لم يتبين إلا بالعقل"،[2] ويعلل الغزالي موقفه هذا بأن كلاً من العقل والوحي أثبت الآخر وثبت به. وعليه فالغزالي يرى أن لكلٍ من العقل والوحي دورا يقوم به لا يحسن غيره ولا يغني عنه فيه غيره.

ابن تيمية

ابن تيمية يقول بأن الوحي مقدم على العقل، ويرى أن العقل لا يستقل في المعرفة. يقول رحمه الله: " لو قيل بتقديم العقل على الشرع، فليست العقول شيئاً واحداً بيناً بنفسه ولا عليه دليل معلوم للناس"، ثم يقول: "وأما الشرع فهو في نفسه قول صادق، وهذه صفة لازمه له، لا تختلف باختلاف أحوال الناس والعلم بذلك ممكن، ورد الناس إليه ممكن ولهذا جاء في التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩)، وهذا يوجب تقديم السمع، وهذا هو الواجب إذ لو رُدّوا إلى عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافاً واضطراباً، وشكاً وارتياباً"[3].

---

(١) الغزالي، محمد بن محمد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي،دار الآفاق الجديدة،بيروت،الطبعة الخامسة،١٤٠١/١٩٨١ ص ٥٧.

(٢) الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص ٥٧ .

(٣) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم،طبعة جامعة الإمام محمد سعود الإسلامية،السعودية، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ / ١٩٧١هـ،جـ١، ص ١٤٦.

وقد اعتبر رحمه الله الوحي ثابتا بدون العقل، يقول رحمه الله عن الوحي: "هو ثابت سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته، أو لم نعلمه لا بعقل ولا بغيره".[1]

غير أن ابن تيمية لم يكن عدواً للعقل المنضبط الذي يسير على نور الله، بل كان عدواً للهوى وللعقل الذي يتجرأ على الوحي، وقد رأى من أهل زمانه من أهل البدع خوضاً في القرآن بدون أصول، مما أفسد على الناس فهمهم للقرآن وأشكل عليهم أمره، فوقف هذا الموقف دفاعاً عن الوحي.

وابن تيمية يعتقد أن العقل الصريح الذي يقوم على أصول سليمة لا يخالف النقل الصحيح الشارع، وإن خالفه فإما أن يكون العقل باطلاً أو مجرد شبهات، أو أن يكون النص أثرا ضعيفا أو خفي الدلالة. يقول رحمه الله: "وقد تأملت في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالف سمعاً قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟ "[2].

تعقيب وتحرير محل الخلاف:

أمام هذه المواقف رأيت من الباحثين من زعم أن الخلاف بين طوائف المسلمين جميعاً خلاف ظاهري. ومنهم من زعم أن الاختلاف عظيم وبنى على ذلك تكفير أناس واتهام آخرين، وبين هؤلاء وأولئك طوائف أخرى، وأجد من المناسب في هذا المقام أن نُحدد مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف للخروج من الخلاف بخلاصة موضوعية.

أولا: اتفقوا جميعاً ابتداءً من المغالين من الفلاسفة وانتهاء بالمتشددين من الظاهرية على ثبوت الوحي من حيث الأصل، وعلى ثبوت الوحي كمصدر من مصادر المعرفة. كما اتفقوا على أن العقل الصريح لا يخالف الوحي الصحيح، وإن اختلفا

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جـ١، ص ٨٧ .

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جـ١، ص ١٤٧.

فخلافهما ظاهري ولا بد من التوفيق بينهما، ثم اختلفوا بعد ذلك في أيهما يُرد أو يُؤول الوحي أم العقل.

ثانياً: اختلفوا حول إمكان استقلال أحدهما عن الآخر. فذهب بعض الفلاسفة والمعتزلة إلى أن العقل يستقل بالمعرفة، ويمكن أن يستغني عن الوحي، ولكن المعتزلة – خلافاً للفلاسفة – انطلقوا في براهينهم العقلية من إيمانهم المسبق بالوحي، ولذلك تأثروا به وإن قالوا باستقلال العقل.

ومقابل هؤلاء قال فريق بأن الوحي هو الذي يستقل بالمعرفة لا العقل، وأن الوحي ثابت بنفسه وبدون العقل.

وبين هذين الفريقين هنالك فريق ثالث ذهب إلى أن العقل والوحي متلازمان لا يستقل أحدهما عن الآخر، ولا بد من السير بهما معاً متوازيين للوصول إلى الحقيقة. مع اختلاف بينهم في التصرف في حال وقوع التعارض بين منحاز للعقل ومنحاز للوحي.

الخلاصة والترجيح:

بعد استعراض هذه المذاهب أرى أن الذين قالوا بأن العقل يستقل بالمعرفة. والذين قالوا بأن مصدر المعرفة الوحيد هو الوحي وما للعقل سوى فهم أحكام الوحي وتنفيذها وقعا في مغالاة لا دليل عليها، وما ساقوه من أدلة يمكن مناقشتها أو ردها، وفيما يلي مناقشة الأدلة:

استدل الفريق القائل باستقلال العقل بأدلة غاية ما تدل عليه أهمية العقل، واعتباره مصدراً من مصادر المعرفة، وليس في ذلك أي إشارة إلى أنه يُستغنى به عن الوحي. فاستدلالهم مثلا بأن الأنبياء عليهم السلام استخدموا براهين عقلية وهذا صحيح، لكنهم استمدوها من الوحي أو استعانوا فيها بالوحي، وبالرغم من أن أقوامهم كانوا كافرين بالوحي، إلا أن أدلة الوحي تصلح لهم لأنها تخاطب كل العقول بمسلمات عقلية يؤمن بها الكافر والمسلم، فهي تخاطبهم بهذه المسلمات بصفتها مسلمات عقلية لا بصفتها وحياً من الله. واستدلوا بأن دلالة اللغة لا يمكن الاعتماد عليها، لأنها حمّالة لأكثر من معنى، وهو مردود لأنها وإن كانت أحياناً تحمل أكثر من دلالة إلا أنها في أحيان أخرى قطعية الدلالة، ويمكن الاعتماد عليها بجانب العقل في مالا طائل للعقل فيه. واستدلوا

بأن صدق النبي صلى الله عليه وسلم ثبت بالعقل وهذا يعني أنه مقدم، وهذا يُرَدّ عليه بأن الثقة بالعقل أيضاً مصدرها الوحي وإن لم يكن كذلك فمن أين جاءت هذه الثقة ؟.

أما الفريق الثاني فقد استدلوا بأدلة غاية ما تدل عليه بيان أهمية الوحي وليس في ذلك كله إشارة إلى أن الوحي يستغني عن العقل. فقولهم بأن عقل الإنسان ناقص وأنه يخطئ فهو صحيح، لكنه كما يخطئ يصيب وعندها يمكن الاعتماد عليه في المعارف العقلية.

وبهذا يظهر لنا وهْنُ موقف الطرفين ونجد من الضروري أن نقترب من الوسط، نحو نقطة التوازن، النقطة التي يتلاقى فيها الوحي مع العقل، ويكمل كل منهما الآخر، لنقرر مطمئنين أن العقل لا يستقل عن الوحي، والوحي لا يهمل العقل ولكل منهما ميدان يخوض فيه.

* * *

الفصل الثاني

التفسير العقلي

المبحث الأول

نشأة التفسير العقلي:

مر التفسير العقلي بمراحل بدأت مع نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هو المرجع في تفسير القرآن لأنه المأمور بتبليغ القرآن وبيان معانيه للناس يقول تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤). وكان القرآن ينزل عليه وحيا من الله باللفظ والمعنى، وينزل عليه معه وحي بالمعنى مما فيه بيان لمعاني القرآن وأحكام الدين، وكان صلى الله عليه وسلم يبين لأصحابه ما أشكل عليهم، ويفصل المجمل ويقيد المطلق ويوضح الأحكام. وكانت تعرض للرسول صلى الله عليه وسلم ولصحابته مواقف تقتضي بيان الأحكام وتطرأ أسئلة تحتاج إلى إجابة، فينزل الوحي ويبين ما يحتاج إلى بيان، وقد لا ينزل الوحي فيجتهد النبي صلى الله عليه وسلم غير أن أكثر التفسير في هذا العصر كان وحيا إما لفظا ومعنى أو معنى فقط، وهذا لا ينفي كون النبي اجتهد بعقله أحيانا، واقر أصحابه على بعض ما اجتهدوا فيه أحيانا أخرى، ومثال الأول ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ (مريم: ٢٨) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم".[1]

ومثال الثاني ما رواه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال : "قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الأَحْزَابِ لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَدْرَكَ

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، انظر النووي ٤ / ٣٤٣.

بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ".[1]

وقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم بين قائل نصلي العصر لأن وقتها أوشك على الخروج والله يقول: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣)، وإنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر أن نسرع في طلب بني قريظة. وفريق قائل لا نصلي العصر إلا في بني قريظة لأن هذا أمر صريح من النبي صلى الله عليه وسلم، أما القرآن فهو عام مخصص بقول النبي صلى الله عليه وسلم.

إذن وقف فريق على ظاهر القرآن وأول نص النبي صلى الله عليه وسلم، ووقف فريق آخر على ظاهر نص النبي صلى الله عليه وسلم وأول القرآن الكريم، وأقر النبي صلى الله عليه وسلم كل فريق على اجتهاده في فهم القرآن الكريم والحديث النبوي، وهذا إقرار منه صلى الله عليه وسلم على اجتهاد أصحابه في فهم القرآن.

يقول النووي: " وأما اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في المبادرة بالصلاة عند ضيق وقتها وتأخيرها، فسببه أن أدلة الشرع تعارضت عندهم، بأن الصلاة مأمور بها في الوقت، مع أن المفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يُصلين أحدٌ... العصر إلا في بني قريظة المبادرة بالذهاب إليهم وأن لا يشتغل عنه بشيء، لا أن تأخير الصلاة مقصود في نفسه من حيث أنه تأخير، فأخذ بعض الصحابة بهذا المفهوم نظرا إلى المعنى لا إلى اللفظ فصلوا حين خافوا فوت الوقت، وأخذ آخرون بظاهر اللفظ وحقيقته فأخروها، ولم يعنف النبي صلى الله عليه و سلم واحدا من الفريقين لأنهم مجتهدون".[2]

وهنالك أمثلة أخرى تفيد أن الصحابة اجتهدوا في تفسير القرآن غير أنهم لم يصيبوا الحق، فما كان من النبي صلى الله علية وسلم إلا أن يصوب فهمهم، ومثال ذلك: ما رواه البخاري من أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوحي، باب مَرْجَعِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الأَحْزَابِ وَمَخْرَجِهِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَمُحَاصَرَتِهِ إِيَّاهُم، رقم ٤١١٩، ٥/ ١٤٣.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٢/ ٩٨.

﴿ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ (البقرة:١٨٧) وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض اللَّيل نظر فلم يَستَبِينَا فلمّا أصبحَ قال يا رسول الله جعلت تحت وسادتي "قَالَ إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ". وفي رواية "قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ أَهُمَا الْخَيْطَانِ قَالَ إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ ثُمَّ قَالَ : لاَ بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ".[1]

ومما تقدم يتبين أن استعمال العقل في تفسير القرآن بدأ منذ عصر النبوة، ولكن لم يكن مصدرا مستقلا عن الوحي بمعنى أن الوحي كان ما زال يتنزل فيقر اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان صوابا، ويوجهه إلى الأولى فيما كان مخالفا للأولى. أما اجتهاد الصحابة فمرده إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن أقره صار تشريعا للأمة، وإن لم يقره فلا يعتبر مصدرا للتفسير.

ثم أخذ التفسير العقلي بعد ذلك بالاتساع خصوصا بعد انقطاع الوحي ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يعد هناك طريق لتفسير ما ليس فيه تفسير بالمأثور سوى العقل، والاستعانة بما بُيّن على بيان ما لم يُبَيَّن. وقد اتسع التفسير في عهد الصحابة لأنهم واجهوا وقائع وأحداث ما كان لهم بها عهد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان لا بد من معرفة الحكم عن طريق الاجتهاد، لذا قام الصحابة بإعمال عقولهم على ضوء القرآن والمنهج الذي علمهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستعانوا بمعرفتهم باللغة وأساليبها، وبأسباب النزول وأفادهم معاصرتهم لنزول القرآن وسلامة فطرتهم وصفاء عقولهم.[2]

يقول ابن خلدون: " فأعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه".[3]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب "وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ"، رقم ٤٥٠٩، ورقم٤٥١٠، ص٦/ ٣١.

(٢) فريد، أحمد فريد صالح، التفسير بالرأي وموقف العلماء من اتخاذه منهجا في التفسير ص ٣٩٧–٣٩٨، بحث منشور في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد ٢١ (أ)، العدد ٤، ١٩٩٤. وانظر بلتاجي، محي الدين، دراسات في التفسير وأصوله، مكتبة الهلال، الطبعة الأولى،١٩٨٧، ص ١٠٣

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار العلم للجميع،لبنان، ص ٤٣٨

وبعد عصر الصحابة اتسعت دائرة التفسير باتساع الدولة الإسلامية وازدياد أعداد المسلمين وطروء مستجدات لم تكن لا في عصر النبي ولا في عصر الصحابة، فكان لا سبيل لمعرفتها إلا إعمال العقل والاجتهاد في ذلك على ضوء المنهج الذي قرره القرآن وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته. إثر ذلك اتسعت دائرة الاختلاف. وتابع المفسرون بعد عصر التابعين الاجتهاد في التفسير، وتوسعوا في البيان والتفصيل نظرا لبعد الناس عن عصر النبوة. وظهر في هذا العصر الوضع في التفسير وكثرت الخلافات وبدأت الفرق والبدع بالظهور وزاد ذلك مع مرور الزمن وابتعاد الناس عن عهد النبوة شيئا فشيئا، وابتعد بعض المفسرين عن المنهج السليم في التفسير وسيطر عليهم الهوى والانتصار للمذهب والتعصب، ودخل في التفسير ما ليس منه حقيقة فانقسم التفسير العقلي إلى قسمين واحد مقبول وآخر مرفوض كما سأبين لاحقا. وظهر من العلماء من لا يجيز التفسير العقلي مطلقا، وتشكلت إزاء التفسير عدة مدارس: من يمنع مطلقا، ومن يجيز مطلقا، ومن يجيز بعضا ويمنع بعضا، وظهر من المفسرين من هو أهل لذلك، وآخرون قالوا في القرآن برأيهم دون أن يمتلكوا من علوم التفسير وأدواته ما يؤهلهم لتبوء مقعد المفسرين.

وبين إفراط هؤلاء وتفريط أولئك اعتدل جمهور علماء المسلمين، فلم يمنعوا التفسير العقلي مطلقا بل أجازوا منه ما كان وفق شروط وقيود تؤهل للتفسير وتعين على معرفة هداية الله.

واستمر الحال على ذلك حتى عصرنا هذا. وتضخم التفسير بشكل كبير، وزادت أعداد التفاسير، بعضها أصيل وبعضها نقل، وبعضها شرح وبعضها اختصار، وفي العصر الحديث نشأت مدرسة عقلية إثر الثورة العلمية المادية المعاصرة وحاولت هذه المدرسة التقريب بين العلم والدين، وبينت أن الدين الإسلامي لا يحارب العلم الصحيح ولا ينافي العقل الصريح... وكان لهذه المدرسة رجال ولها مفسرون.[1] وخرج من هذه المدرسة متطرفون بالغوا في اعتمادهم على العقل ولم يختلفوا في ذلك عن المدارس العقلية القديمة.

---

(١) الرومي، فهد عبد الرحمن، اتجاهات التفسير في القرآن في القرن الرابع عشر، دار البحوث والإفتاء في السعودية، ط ١٩٨٦، ٢٢/٧١٧

المبحث الثاني:

موقف العلماء من التفسير العقلي

هنالك طريقتان لفهم القرآن الكريم:

الأولى: الاعتماد على ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة مما نقلوه وعرفوه من معاني القرآن بحكم معاصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولنزول القرآن، وهذا يسمى التفسير النقلي أو المأثور وهو يقابل التفسير العقلي.

والطريقة الثانية: إعمال العقل في نص القرآن والاستعانة بالعلوم المتعلقة به لفهم مراد الله، وقد افترق العلماء إزاء هاتين الطريقتين إلى ثلاثة اتجاهات:

الأول: يقتصر على التفسير النقلي ويمنع العقلي.

الثاني: يعتمد التفسير النقلي ولا يمنع العقلي ولكنه يؤخره.

الثالث: يعتمد العقلي والنقلي ويقدم العقلي حال التعارض. وعليه فإن للعلماء تجاه التفسير العقلي موقفان:

الأول: مانع له.

الثاني: مؤيد له على خلاف في رتبته بالنسبة للتفسير النقلي.

يقول الراغب الأصفهاني في مقدمة تفسيره "... فبعض تشددوا في ذلك وقالوا لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالما أديبا متسعا في معرفة الأدلة والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهي إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو الذين أخذوا عنهم من التابعين... وذكر آخرون أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسره".[1]

ولعل سبب خلاف العلماء في التفسير العقلي بين الإجازة والمنع عائد إلى رأي العلماء في دور العقل في المعرفة عموما، ودوره في معرفة الوحي وفهمه خصوصا، أي العلاقة بين العقل والوحي (النقل) وأيهما يقدم على الآخر، وقد بينت فيما سبق موقف

---

(١)الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مقدمة جامع التفاسير، تحقيق أحمد فرحات، دار العودة الكويت، ط، ١٩٨٤، ص ٩٣

القرآن الكريم والعلماء المسلمين في هذه القضايا، ولا بد الآن من بيان أثر ذلك على الموقف من التفسير العقلي.

المانعون للتفسير العقلي

ينسب القول بمنع التفسير بالرأي إلى بعض الصحابة كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبعض التابعين كسعيد بن المسيب وهنالك آثار عنهم يدل ظاهرها على قولهم بحرمة تفسير القرآن بالرأي ـ وسأذكر هذه الآثار في سياق استدلال المانعين ـ وقد قيل بناء على هذه الآثار إن هؤلاء يمنعون التفسير، غير أن هذا محل نظر وسأناقش ذلك لاحقا إن شاء الله.

أما أدلة المانعين فهي:

١- من القرآن استدلوا بقوله تعالى: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤). حيث أضاف الله سبحانه وتعالى البيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويفهم من ذلك عدم جواز الخوض في بيان القرآن الكريم لغيره.

٢- استدلوا بنصوص من السنة تنهى عن القول في القرآن بالرأي ومن هذه النصوص:

أ- قوله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ".[١]

ب- قوله صلى الله عليه وسلم: " من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ ".[٢]

٣- استدلوا بآثار عن الصحابة منها:

---

(١) رواه الترمذي، محمد بن عيسى، في جامع الترمذي، بيت الأفكار الدولية، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه وقال هذا حديث حسن، رقم الحديث (٢٩٥١) ص ٤٧٢ ، وقد ضعفه الألباني، ورواه أحمد في مسنده ٢٣٣/١ ، وضعفه شعيب الأرناؤوط في أحكامه على أحاديث المسند لأن في إسناده عبد الأعلى الثعلبي وهو ضعيف.

(٢) الترمذي، جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥٢) ص ٤٧٢، وقال حديث (غريب) وقد تكلم بعض أهل العلم في (سهيل بن أبي حزم) وهو أحد رواة الحديث، وقد ضعفه كذلك الألباني.

أ- روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله برأيي".[1]

ب- روي عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأنه لم يسمع شيئا".[2]

٤- قالوا إن التفسير بالعقل قول على الله بغير علم، لأن المفسر ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله، ولا يمكنه القطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم محرم بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٩) عطفا على ما قبله من المحرمات وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء: ٣٦)[3] وعليه قالوا إن التفسير بالعقل ممنوع.

المجيزون للتفسير العقلي

المجيزون للتفسير العقلي جل أهل العلم وقد دل على ذلك قولهم بالجواز أو استخدمهم لهذا المنهج، وقد استدل هؤلاء المجيزون من المنقول والمعقول بما يلي:

١- استدلوا من القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء: ٨٣)، ففي الآية دليل على أن من القرآن ما يتوصل إليه بنظر أولي الألباب واستنباطهم. يقول الغزالي: "فأثبت لأهل العلم استنباطا، معلوم أنه وراء السماع".[4]

---

(١) الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ)، جامع البيان، ٥٨/١، الراغب الأصفهاني، الحسن بن محمد، مقدمة جامع التفاسير، ص ٩٣، وابن تيمية، أحمد عبد الحليم (٧٢٨هـ)، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الكويت ط١٩٧١،١ ص ١٠٨

(٢) الطبري، جامع البيان، ٦٣/١، ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص ١١٢

(٣) الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٥٦/١، الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ٥٥/٢

(٤) الغزالي، محمد بن محمد (٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، الأولى ١٩٩٢، ٤٥٠/١

٢- استدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩) ففي الآيتين حث على التدبر والاعتبار بآيات القرآن وهذا هو التفسير بالعقل.

٣- استدلوا بما رواه ابن عباس قال: كنت في بيت ميمونة بنت الحارث، فوَضَعْتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم طَهُورا فقال: "من وضع هذا"؟ قالت ميمونة: عبد الله فقال صلى الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأول".[١]

ووجه الاستدلال أن التأويل (أي التفسير) منه ما يتعلم تعلما ويوصل له بالاجتهاد، ولو كان كل التفسير مقصورا على النقل لما كانت هنالك فائدة من تخصيص ابن عباس بتعلم التأويل؛ لأن التفسير عندها سيكون نقلا فقط، ثم هنالك فرق بين نقل التفسير وتعلم التأويل، يقول الغزالي: " فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه ـ يقصد ابن عباس ـ بذلك ".[٢]

٤- استدلوا بروايات تدل على أن الصحابة اختلفوا في فهم القرآن وتفسيره، وهذا يعني أن هذا التفسير باجتهادهم؛ لأنه لو كان نقلا لما وقع الخلاف، أما وإن الخلاف وقع فذلك يعني أنهم اجتهدوا في تفسير بعضه. ولأن العقول متباينة وقع ذلك الخلاف، وهذا يدل على وقوع التفسير العقلي منهم وبالتالي جوازه.

٥- قالوا إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل القرآن بل بين لهم ما غمض عليهم، وما سوى ذلك مما نقل لنا عن الصحابة كان من اجتهادهم، ولو كان التفسير العقلي محذورا لما فسر الصحابة شيئا باجتهادهم.

---

(١) رواه ابن حبان، انظر الفارس، علي بن بلبان (٧٣٩هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حيان، تحقيق شعيب الأرناؤوط،مؤسسة الرسالة،الطبعة الأولى ١٩٩١، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضوان الله عليهم أجمعين، باب ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن عباس بهما، ٥٣١/١٥، وصححه شعيب الأرناؤوط. ورواه أحمد في مسنده كتاب مسند عبد الله بن عباس وقال شعيب الأرناؤوط في أحكامه على أحاديث المسند قوي الإسناد على شرط مسلم، ٣٢٨/١.

(٢) الغزالي. إحياء علوم الدين، ٤٥٠/١

٦- قالوا لو كان التفسير العقلي ممنوعا لكان الاجتهاد كذلك ممنوعا، ولو كان الاجتهاد ممنوعا لتعطلت كثير من الأحكام، ولبقيت الآيات التي لم تفسر لا في القرآن ولا السنة غامضة المعنى على الناس وهذا باطل. وعليه فإن التفسير العقلي جائز.

المناقشة والترجيح:

عقب بيان موقف القرآن من العقل وعلاقته بالنقل، وبيان مكانة العقل في الشرع وأثره في تقرير الحقائق الدينية، وبعد استعراض أدلة المانعين والمجيزين للتفسير العقلي، يترجح على ضوء ما سبق أن التفسير العقلي جائز بل لا بد منه لفهم كتاب الله ولكن بشروط وضوابط سأبينها لاحقا إن شاء الله، وبهذا المنهج نوفق بين التفسير النقلي والعقلي، ونحد حدا لكل منهما ضمن علاقة تكاملية منضبطة ليس فيها إلغاء لأحدهما ولا غلو ولا مغالاة، وهذا ما عليه أكثر العلماء بل جميعهم إذا ما حُرر محل الخلاف.

يقول الراغب الأصفهاني: " وذكر بعض المحققين أن المذهبين ـ يقصد المانعين للتفسير العقلي والمغالين فيه ـ هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر على المنقول إليه فقط ترك كثيرا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (ص: ٢٩).[1] ويقول الغزالي: " إن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه " ثم يقول " فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله. وأما النهي فإنه ينزل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي واليه ميل من طبعه وهواه فيتناول القرآن وفق رأيه وهواه...

و**الثاني**: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة..."[2]

---

(١) الراغب الأصفهاني، مقدمة جامع التفاسير، ص ٩٤

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ٤٥٠-٤٥١

وهذا الكلام الذي قاله الراغب والغزالي قول عدل وميزان دقيق في التوفيق بين المنهجين بمنهج ثالث يقدم المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الموحى له أعلم بمراد الله من البشر، أما صحابته فقد سمعوا منه، وعاصروا نزول القرآن عليه وأسباب هذا النزول، فكان قولهم معتمدا ومقدما، فإن لم يوجد في كلام الله منقول من هذا القبيل جاز لصاحب العلم أن يعمل عقله ويحاول استنباط مراد الله شرط أن يبتعد عن الهوى ويحرص على إصابة الحق، فإن حصل له شيء من الفهم قاله دون القطع به. أما أن يتعرض لتفسير القرآن من ليس أهلا له ومن لا يملك العلوم اللازمة فهو الممنوع، هذا المنهج ليس إغلاقا مطلقا للباب بل منعا للتصدي له بدون علم، وهذا ما سماه العلماء التفسير بالرأي المرفوض، ولعل المانعين للتفسير العقلي إنما منعوا هذا النوع دون الآخر.

إذن التفسير العقلي قسمان:" قسم جار على كلام العرب ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي. وقسم غير جار على قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط التفسير، وهذا مورد النهي ومحط الذم".[1]

مناقشة أدلة المانعين:

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤)، يجاب عليه بأن إضافة البيان للرسول صلى الله عليه وسلم لا جدال فيها، فإذا ثبت عنه شيء فلا يصح إلا المصير إليه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم مات ولم يفسر كل القرآن، فما كان كذلك فلا مانع من الاجتهاد فيه بل ذلك واجب وليس في الآية دليل ولا شبهة لمنع ذلك.

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون، ١/ ٢٦٤

أما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار".[1] فلا يسلم لهم من جهتين:

الأولى: ضعف الإسناد.

الثانية: أن النهي مقيد بما صرح به في بعض الروايات (بغير علم) فالمنهي التكلم في التفسير بغير علم. يقول الترمذي في التعليق على الحديث: " وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم أو من قبيل أنفسهم ".[2] كما يمكن حمله على التكلم في مشكل القرآن ومتشابهه وكل ما لا سبيل لمعرفته إلا بالنقل. أو يحمل على الرأي الذي لا دليل عليه أو الرأي الصادر عن هوى، أو من قال في القرآن برأيه ولا يملك العلوم المساعدة على الفهم. يقول الشاطبي: " وأما الرأي غير الجاري على موافقة العربية أو الجاري على الأدلة الشرعية فهذا هو الرأي المذموم ".[3] ويمكن حمله على من يقول في القرآن برأيه دون الرجوع إلى المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم.[4]

وعليه فللتفسير بالعقل شروط وعلوم مساعدة، إن توفرت جاز، وإن لم تتوفر فهو الذي الممنوع.

– أما استدلالهم بما روي عن بعض الصحابة مما يفهم منه توقفهم عن التفسير بالعقل. فيجاب عليه بأنهم توقفوا عن تفسير ما لا يعرفون الحق فيه، وهذا ليس غريبا فمن من البشر يعلم كل مراد الله في قرآنه؟ ويمكن أن يقال: إن توقفهم عنه إنما كان ورعا واحتياطا لأنفسهم خوفا من أن يحيدوا عن الحق، مع علمهم أن التفسير شهادة

---

(١) رواه الترمذي، محمد بن عيسى، جامع الترمذي، بيت الأفكار الدولية، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه وقال هذا حديث حسن، رقم الحديث (٢٩٥١) ص ٤٧٢، وقد ضعفه الألباني، ورواه أحمد في مسنده ٢٣٣/١، وضعفه شعيب الأرناؤوط في أحكامه على أحاديث المسند لأن في إسناده عبد الأعلى الثعلبي وهو ضعيف.

(٢) الترمذي، سنن الترمذي، ص ٤٧٢

(٣) الشاطبي، الموافقات، ٢٧٠/٣

(٤) الذهبي، التفسير والمفسرون،٢٥٨/١–٢٥٩. والزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ٥٥/١–٥٦

على الله بأنه عنى باللفظ ما قالوه. ويؤكد رد هذا الاستدلال أنه روي عنهم رضوان الله عليهم قول في التفسير باجتهادهم، كالذي روي عن عمر عندما سئل عن الكلالة حيث قال: " أقول فيها برأيي فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان".[1]

كما أن وقوع الخلاف بينهم يدل على أن تفسيرهم كان اجتهادا لأنه لو كان نقلا لما وقع الخلاف، ومن الأمثلة ما روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ عُمَرُ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ – فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ – فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ قَالَ مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ : لاَ قَالَ فَمَا تَقُولُ قُلْتُ هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فَقَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ".[2]

ويؤكد هذا أن ابن تيمية بعد أن ساق هذه الأقوال وأقوالا أخرى مثلها قال: " فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمول على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج فيه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران:١٨٧) ولما جاء في الحديث "من

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الفرائض، باب حجب الأخوة والأخوات، ٦/٣٦٧، قال ابن حجر إسناده صحيح، انظر ابن حجر العسقلاني، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ٤/٤٧٢. وهذا الأثر مشهور من طريق آخر عن أبي بكر، قال ابن حجر في تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير الأثر المروي عن أبي بكر إسناده منقطع، انظر ٤/٤٧٢.

(٢) رواه البخاري، صحيح البخاري، في كتاب التفسير، باب قوله فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا، ٦/٢٢٠.

سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار".[1] ويقول الطبري: "فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القول في تأويل القرآن وتفسيره من علماء السلف إنما كان إحجامه عنه حذار أن لا يبلغ أداء ما كلف من إصابة القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوب من علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم".[2]

بقي استدلالهم من المعقول بأن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم وهو ممنوع، ويجاب عليه بأن الظن نوع من العلم إذ هو إدراك الطرف الراجح، وبفرض ذلك فليس الظن ممنوعا مطلقا، بل ممنوعا إن أمكن الوصول إلى العلم اليقيني بطريق النقل، أما إن لم يمكن فالظن كاف، والله لا يكلف النفس إلا وسعها ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) ولقوله صلى الله عليه وسلم: "جعل الله للمصيب أجرين وللمخطئ واحد".[3][4]

* * *

(١) رواه أبو داوود في السنن،كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨) ص ٤٠٤، وصححه الألباني، ورواه أحمد، ٢٦٣/٢، وصححه الأرناؤوط.

(٢) الطبري، جامع البيان، ٦٤/١

(٣) رواه البخاري، في صحيحه، دار الكتب العلمية الأولى ٢٠٠١، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد، ١٣٣/٩.

(٤) الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٥٧/١، والزرقاني، مناهل العرفان، ٢/ ٥٥

الفصل الثالث

ضوابط التفسير العقلي

المبحث الأول: العلوم التي يحتاجها المفسر :

تفسير القرآن مراتب أدناها تفسير الألفاظ والتراكيب واضحة الدلالة بما يكشف عن المعنى الإجمالي لمراد الله، وهذا أمر متيسر لعامة الناس من أهل العربية أو من تعلمها، يساعد في ذلك أن القرآن نزل بلغة واضحة وأسلوب يسير قريب من العامة والخاصة وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(القمر:١٧). وأعلى مراتب التفسير الخوض في دقائق الألفاظ ومُشكلها ومتشابهها، والخوض في دقائق البيان والمعاني واستنباط الأحكام منها وهذا عمل عظيم، ولا يتعرض له إلا أهل العلم.

يقول محمد رشيد رضا: "للتفسير مراتب: أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير، وهذه هي التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد... ـ ثم يقول ـ أما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور".[1] ثم ذكر رحمه الله علوما لا بد منها لمن تصدى لتفسير القرآن الكريم، وقد ذكرها مِنْ قَبْله الزركشي[2] في البرهان، ونقلها عنه السيوطي[3] في الإتقان، ونقلها عنهما من كتب في الموضوع من المتأخرين[4] وهذه العلوم هي:

١- علم اللغة: بها يعرف المفسر معاني مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوسع "روي عن مجاهد قوله: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا

---

(١) رضا، محمد رشيد (١٩٣٥م)، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، دار الكتب العلمية،بيروت الطبعة الأولى (١٩٩٩)، جـ١ ص ٢٣

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢ ١٨٢

(٣) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القران، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧، ص٤/ ١٨٥

(٤) الزرقاني، مناهل العرفان، ٢/ ٥١ والذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ١/ ٢٦٥، العك، خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس بيروت،ط ١٩٨٦، ص ١٨٦

لم يكن عالما بلغات العرب".[1] وذكر ابن خلدون أن التفسير نوعان الأول المنقول والثاني ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب.[2] ولا يكفي المفسر معرفة اليسير منها بل لا بد من التبحر ومعرفة التفاصيل فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد المعنى الآخر.

٢- علم النحو: لأن الإعراب فرع والمعنى يختلف باختلاف الإعراب فلا بد من مراعاته.

٣- علم الصرف: به تعرف الأبنية والصيغ، يقول الزمخشري: " عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (الإسراء:٧١) "من بدع التفاسير قول من قال بإمامهم جمع أم، وإن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، ".[3] قال السيوطي بعد أن نقل كلام الزمخشري " وهذا غلط أوجبه جهله بالتصرف (يقصد صاحب القول الذي أورده الزمخشري واستبعده)، فإن أما لا تجمع على إمام".[4]

٤- الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما كالمسيح، فإذا كان مشتقا من السياحة اختلف عنه إذا كان مشتقا من المسح.

٥- المعاني: به يعرف خواص التركيب من جهة إفادتها المعنى.

٦- البيان: به تعرف خواص الكلام بحسب وضوح الدلالة وحقائقها.

٧- البديع: به تعرف وجوه تحسين الكلام.

٨- القراءات: بها تعرف كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءات تترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

٩- أصول الدين: أو علم التوحيد ومعرفة ما يجب لله وما لا يجب، لئلا يقع المفسر بالغلط في ذلك.

---

(١) نقل هذا القول الزركشي، البرهان، ٢/١٨٢، السيوطي، الإتقان، ٤/١٨٥

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٤٠

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر (٥٢٨) الكشاف، دار الريان للتراث،الطبعة الثالثة ١٩٨٧، عند تفسير الآية ٢/٦٨٢

(٤) السيوطي، الإتقان، ٤/١٨٥.

١٠- أصول الفقه: حيث به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام والاستنباط من النصوص.

١١- أسباب النزول والقصص: فبسبب النزول يعرف معنى الآية بحسب ما أنزلت فيه وبه يزول بعض الإشكال.

١٢- الناسخ والمنسوخ: ليعلم المحكم من المنسوخ.

١٣- علم الفقه: به تعرف مذاهب الفقهاء، واحتجاجهم بالآية ووجه الاحتجاج.

١٤- الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم وتقييد المطلق إلى غير ذلك.

١٥- علم الموهبة: وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢).

وزاد الشيخ محمد عبده في مقدمة تفسيره علوما هي:

١٦- علم أحوال البشر: فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبَيَّن فيه ما لم يُبَيِّن في غيره، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر... فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر.

١٧- العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه أصحابه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها.(١)

بهذه العلوم يكون من تصدى للتفسير أقرب لإصابة الحق، وبدونها يكون قوله افتراء بغير علم. نقل السيوطي عن أبي الدنيا: "فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر، ولا يكون مفسرا إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسرا بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأي المنهي عنه ـ ثم قال ـ والصحابة والتابعون عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب. واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم".(٢)

* * *

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ١/ ص ٢٤-٢٥

(٢) السيوطي، الإتقان، جـ٤/ ١٨٨

المبحث الثاني

منهج التفسير العقلي:

لا بد في هذا النوع من التفسير من السير وفق منهج واضح محدد ليكون هذا التفسير مقبولا، وهذه الخطوات هي:

أولا: أن يبدأ أولا بتفسير القرآن بالقرآن. ويحمل المجمل على المفصل والمطلق على المقيد والمختصر على المبسوط. وهذه الخطوة هي الأولى لمن أراد فهم معاني كتاب الله؛ لأن القرآن كلام الله ولا أحد أعلم بمراده منه سبحانه.

ثانيا: ثم إن لم يجد ما أراده في القرآن، بحث عنه فيما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو مبلغ الرسالة وعليه نزل الوحي وإليه أسندت مهمة بيانه. روي عنه صلى الله عليه وسلم: " ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه... ".[1] يقول الخطابي: " أوتي الكتاب وحيا يتلى، وأوتي البيان مثله أي أذن له أن يبين ما في كتاب الله تعالى".[2]

ثالثا: إن لم يجده في ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم لجأ إلى ما أثر عن الصحابة فهم خير القرون فيهم نزل القرآن، وهم أصحاب الفطرة الصافية، واللغة السليمة، وكثير مما يقولونه في القرآن ربما أخذوه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعا: ثم ينظر فيما أثر عن التابعين فهم خير القرون بعد الصحابة، وقد أخذوا عن الصحابة المنهج السليم والعلم القويم.

خامسا: إن لم يجد في المنقول فسر القرآن بعقله إذا توفرت له العلوم والشروط التي ذكرت.[3] على أن يراعي ما يلي:

١- الأخذ بمطلق اللغة لأن القرآن نزل باللغة العربية، فإن لم يمكن له ذلك لجأ إلى التأويل، بشرط وجود القرائن الدالة التي تصرف اللفظ عن المعنى الظاهر إلى معنى آخر.

---

(١) أبو داوود، سنن أبي داوود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ص ٥٠٣ رقم (٤٦٠٤)، صححه الألباني.

(٢) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق محمد الحفناوي وآخرين،دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى،١٩٩٤، ٥٤/١

(٣) ذكر هذه العلوم الزركشي، البرهان، ١٧٣/٢، والسيوطي، الإتقان، ١٨٠/٤، والزرقاني، مناهل العرفان، ٥٩/٢ ، والذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٧٣/١

٢- أن يفسر بالمقتضى من كلام العرب والمقتضب من قوة الشرع، وأن لا يكون همه الحشو بمعان غريبة وعلوم بعيدة، وما لا فائدة منه في التفسير.

٣- أن يبتعد عن الأحاديث الضعيفة والإسرائيليات وتفاصيل القصص التي لا مستند لها.

٤- أن يتجنب ادعاء التكرار والزيادة.

٥- أن يراعي سياق الآيات وعلاقة السور بعضها ببعض وأسباب النزول.

٦- أن يتجنب الخوض فيما أستأثر الله بعلمه.

٧- أن لا يقطع بأن ما فسر به هو مراد الله من غير دليل.

٨- أن يطابق تفسيره للمُفَسر دون اختصار مخل أو إطناب ممل يؤدي إلى وقوع الحشو.

٩- أن يعتمد قانون الترجيح ويسير عليه سيرا دقيقا عند تعرضه للاختلاف في التفسير.[1]

* * *

(١) السيوطي، الإتقان، ٤/ ١٧٥، والزرقاني، مناهل العرفان، ٢/ ٥٩ وما بعدها.

المبحث الثالث

شروط المفسر:

إذا توفرت العلوم التي ذكرتها سابقا في المفسر فقد وقف على أول باب التفسير، ولكنه لا يؤخذ منه التفسير إلا إذا تحققت فيه شروط هي:

١- سلامة الاعتقاد وحسن النية: وهي شرط لازم لكل من تصدى لعلم من علوم الشريعة وبالذات تفسير القرآن الكريم، لأنه بدون هذا الشرط ليس من أهل الملة التي نزل لها هذا الخطاب، ولن يكون فهمه متيسرا له، كذلك لا يؤمن جانبه من الطعن في الدين، يقول السيوطي في بيان شرط المفسر: اعلم أن شرطه صحة الاعتقاد أولا، ولزوم سنة الدين، فإن كان مغموضا عليه دينه لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين، ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويغر الناس بلَبِّه وخداعه".[١]

٢- السلامة من البدع، لأن صاحب البدعة يخشى من أن ينتصر لبدعته، ومن كان صاحب بدعة ففي عقله أو قلبه مرض، وهذا يحجب عنه نور كتاب الله لذا لن يهتدي إلى الحق. وابن تيمية رحمه الله يمثل للذين ضلوا في تفسير القرآن فأخطؤوا في الدليل والمدلول فيقول: "مثل أهل الطوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الحق... وعمدوا إلى القرآن، فتأولوه على آرائهم".[٢]

٣- البعد عن الهوى وحب الدنيا والكبر، لأن صاحب الهوى عبد هواه، والذي تعلق قلبه بالدنيا انقطع عنه نور ربه وكل ذلك صارف له عن إصابة الحق وفهم مراد الله في كتابه. يقول الزركشي: " اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب الدنيا ".[٣] يقول تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

---

(١) السيوطي، الإتقان، ٤/ ١٧٤بتصرف.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم،(٧٢٨هـ)، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور،دار القرآن الكريم،الكويت ط١،١٩٧١، ص ٨٢

(٣) الزركشي، البرهان، ٢/ ١٩٧

غَٰفِلِينَ ﴾(الأعراف:١٤٦). وذكر ابن عطية أن معناها سأمنع المتكبرين عن الآيات والاستدلال بها.[١] وذكر الغزالي من أشكال التفسير بالرأي المرفوض " أن يكون له في الشيء رأي وميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه".[٢]

* * *

(١) ابن عطية الأندلس، عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق عبد الله الأنصاري وآخرين،طبعة دولة قطر،الطبعة الأولى ١٩٨٤، ٦/ ٧٨

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ٤٥٠

المبحث الرابع

التفسير العقلي المرفوض:

ذكرت فيما سبق العلوم والشروط والضوابط اللازمة للتفسير العقلي المقبول، وهو الذي يقابل التفسير العقلي المرفوض أو المذموم الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وتوقف عنه الصحابة والتابعون وذمه علماء المسلمين من بعد، بل إن بعض العلماء تشدد فأنكر لأجل ذلك التفسير العقلي كله وجاء هذا كرد فعل طبيعي لظهور اتجاهات في التفسير انحرفت وتجاوزت التفسير النقلي، وسلكت طريق العقل في التفسير بدون ضوابط فخرجت عن الجادة.

وفي هذا المبحث سأتحدث إن شاء الله عن هذا النوع من التفسير وسأبين أسباب الخطأ فيه، وأضرب أمثلة على ذلك، غير أني سأخرج عن أسلوب بعض الذين كتبوا في الموضوع حيث قسموا التفاسير إلى قسمين واحد سلك المنهج العقلي المقبول، وآخر سلك المنهج المرفوض، فالوصف بالقبول أو الرفض لا يمكن أن يجري على التفسير كله ليوصف بالجملة انه مقبول أو مرفوض، فكلها – على تفاوت بينها – تفاسير ذات قيمة علمية مهمة غير أن فيها أحيانا ما هو مقبول وفيها أحيانا أخرى ما هو غير مقبول، لذلك سأستل منها أمثلة على كلا المنهجين، ذلك لأني لا أجد من هذه التفاسير من أصاب الحق وسلك المنهج في كل محتواه، ولا أجد بالمقابل من جانب وخالف المنهج في كل محتواه، بمعنى أنك تجد في التفاسير من سلك أحيانا المنهج المقبول وأحيانا أخرى المنهج المرفوض، على خلاف بينها في أن بعضها غلب فيه المقبول فصنف ضمن المقبول، وآخر غلب فيه المرفوض فصنف ضمن المرفوض، وهذا محل الانتقاد عندي بل إنك لتجد بعض الأمثلة على التفسير المرفوض موجودة في تفاسير تصنف عموما ضمن المقبول، وعليه ليس هذا اختراعا جديدا بل تحررا في جمع الأمثلة على التفسير المنحرف من مواردها حيثما وردت في أي تفسير مهما كان وصفه.

أسباب الانحراف في التفسير العقلي:

١– أن يتصدى للتفسير من لا يملك علومه وأدواته، إذ لا بد لمن يتصدى للتفسير من علوم وأدوات وشروط ولا يجوز أن يخوض هذا الميدان من لا يملكها؛ لأنها من المعينات

على إصابة الحق والكشف عن مراد الله، وبدونها يكون المفسر عرضة للزلل والقول على الله بغير علم وهذا منهي عنه.

٢- أن لا يسلك المفسر المنهج السليم ولا يرتب الأوليات والأولويات، فيقدم مثلا المرجوح على الراجح، ويتجاوز تفسير القرآن بالقرآن، أو ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيه.

٣- أن يتجاوز المفسر مفهوم اللغة وكلام العرب، ومن ذلك التفسير الإشاري وبعض التفسير الصوفي.

ومثال ذلك كثير في التفسير المنسوب لابن عربي، ومن الأمثلة عليه أنه فسر قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(هود:٧) فقال: " أي عرشه الذي هو العقل الأول، مبنيا على العلم الأول، مستندا إليه، مقدما بالوجود على عالم الأجسام، وإن أوّلْنا الأيام الستة بمدة الخفاء كما مرّ، وخلق السماوات والأرض بإخفائه تعالى بتفاصيل الموجودات فمعنى كون عرشه على الماء، كونه قبل بداية الاختفاء ظاهرا معلوما للناس.[١]

٤- أن يتبع هواه وينتصر لمذهبه ويقرر في ذهنه معتقدات سابقة ثم يحمل آيات القرآن الكريم عليها.

يقول سيد قطب في رسم المنهج السليم للتفسير بالعقل: " ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم ألا نواجهه بمفردات سابقة إطلاقا، ولا مفردات عقلية شعورية من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته، نحاكم إليها نصوصه أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المفردات السابقة... ليست هناك إذن مفردات سابقة نحاكم إليها كتاب الله تعالى، إنما نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداء ".[٢] ولا فرق في ذلك بين أن يكون المعنى الذي قرره من تصدى للتفسير صوابا أو خطأ. لأن العمدة لفظ القرآن وما يدل عليه.

---

(١) ابن عربي (٦٣٨)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، ١٩٨٧، ١/ ٥٥١

(٢) قطب، سيد، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، الطبعة السابقة ١٩٨٢، ص ١٥

ومثال الأول: تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء:٦٦) حيث فسر أبو عبد الرحمن السلمي الصوفي الآية بقوله: " أي اقتلوا أنفسكم بمخالفة هواها".[١] ولا شك أن مخالفة الهوى معنى صحيح إلا أن لفظ القرآن وسياقه لا يحتمله.

ومثال الثاني: انتصار الزمخشري لرأيه في إنكار رؤية المؤمنين لله يوم القيامة حيث يفسر قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣) قال ناظرة بمعنى التوقع والرجاء.[٢] وهذا تأويل للفظ بما يخالف ظاهر اللغة ويؤيد المذهب.

٧- المغالاة في تقديم العقل، ورد التفسير المأثور لأنه يتعارض مع العقل. وأنا هنا لا أنكر دور العقل ولكن تقرر سابقا أن للعقل دورا ولكنه محدود بإطار الشريعة وضوابطها ولا ينبغي أن يقدم على المنقول الصحيح، وقد وقع أصحاب المدرسة العقلية الحديثة بهذا المزلق، وبناء عليه فسر محمد عبده قوله تعالى في قصة مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:٣٧) وأنكر ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن الرزق طعام الصيف يأتيها شتاء وطعام الشتاء يأتيها صيفا.[٣] ذلك لأن هذا القول عنده مخالف للعقل، مع أنه تفسير مأثور ثابت.[٤] وأكثر من وقعوا في هذا المزلق المنتصرون للعقل من الفلاسفة والمتكلمين، لأن العقل عندهم مقدم على النقل، وما خالف العقل عندهم مردود.

٦- الخوض في الإسرائيليات وتفصيلات القصص.

على الرغم من أن المفسرين حذروا من الإسرائيليات، وتعهدوا في مقدماتهم أن يتجنبوها وأن يبينوها إلا أن كثيرا منهم وقع في المحظور وذكر كثيرا من الإسرائيليات مما ادخل الضعف للتفسير، وصارت مثل هذه التفاسير من مظانّ الموضوعات في المأثور.

---

(١) الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢/ ٣٨٧

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٦٦٣

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٣/ ٢٤١.

(٤) أخرج الحاكم في مستدركه نحو ذلك ووافقه الذهبي أنظر المستدرك، رقم (٣١٥٠)، ٢/ ٣١٩.

ومن المفسرين الذين أكثروا من ذكر الإسرائيليات. الخازن في تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل. فعند تفسيره لقصة أصحاب الكهف في سورة الكهف ذكر القصة بتفاصيل دقيقة وغريبة كلها من الإسرائيليات دون أن يعقب عليها.[1]

٧- التوسع في مسائل بعيدة عن التفسير مثل مسائل الفلسفة والكلام والتفصيلات اللغوية والقضايا العلمية، ولا ننسى أن القرآن وإن تناول هذه العلوم إلا أنه كتاب مهمته الأولى الهداية، وينبغي أن لا يخرج المفسر عن هذا الإطار فيحول التفسير إلى كتاب تاريخ أو لغة أو فلسفة أو كتاب علمي.

ومن الذين خرجوا عن التفسير إلى شتى العلوم الكونية طنطاوي جوهري في كتابه الجواهر في تفسير القرآن والأمثلة على ذلك كثيرة يكاد القارئ يلحظها في كل آية ومثال ذلك عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (مريم: ٨٣) تحدث حديثا طويلا عن عالم الأرواح بما خرج به عن دائرة التفسير.[2]

* * *

(١) الخازن، علي بن محمد (٧٢٥)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٥، (٧٢٥) ٣ / ١٥٣

(٢) طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، المكتبة الإسلامية، الثالثة ١٩٨٧، ١٠/ ٥٠

الخاتمة

لا شك أن موضوع العقل والتفسير العقلي موضوع واسع لذلك حاولت في هذا البحث أن أتناول فروعا منه ووصلت للنتائج التالية.

– ناقشت نظرة القرآن الكريم للعقل ثم مكانة العقل في الفكر الإسلامي من خلال فهم العلماء المسلمين لموقف القرآن من العقل، ورأيهم في العلاقة بينه وبين النقل، ثم موقفهم من التفسير العقلي.

– نشأ التفسير العقلي منذ نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكان صلى الله عليه وسلم هو مصدر هذا النوع من التفسير يرجع الصحابة إليه إن أمكن، وإن لم يمكن الرجوع اجتهدوا ضمن المنهج والضوابط التي علمهم إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

– بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخدم الصحابة هذا النوع من التفسير على نطاق ضيق حسب ما دعت الحاجة إليه.

– بعد اتساع الدولة الإسلامية وظهور المستجدات كان الناس يلجؤون إلى القرآن ليجدوا فيه حكم هذه المستجدات، فما نقل لهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أخذوا وما لم ينقل إليهم فيه شيء كان لزاما عليهم أن يعملوا فيه عقولهم، هنا نشأت مدرستان في التفسير، واحدة تمنع التفسير العقلي وأخرى تجيزه، وبعد البحث ومناقشة أدلة الفريقين رأيت أن أميز بين نوعين من التفسير.

واحد مقبول: وهو ما قام على النظر والاجتهاد والاستدلال عن علم ووفق ضوابط الاجتهاد، وهذا المنهج هو الذي استخدمه الصحابة، واختلافاتهم في تفاسيرهم على قلتها تؤكد ذلك.

أما **النوع الثاني** وهو التفسير العقلي المرفوض الذي يقوم على الهوى والتعصب والانتصار للرأي ولا يستند إلى دليل نقلي أو لغوي أو عقلي وهو الذي أحجم عنه الصحابة ومن تابعوهم، ومنعوه على أنفسهم وعلى غيرهم. وعليه فالمنهج الأعدل هو منهج الصحابة وهو التوسط بين الموقفين، فلا نجيز مطلقا ولا نمنع مطلقا، لأن منع هذا المصدر من التفسير مطلقا غير جائز بل غير ممكن؛ إذ كيف يمكن الاقتصار على المنقول مع تجدد الحياة والحاجة إلى استنباط الأحكام لهذه المستجدات.

– لكن لا نجيز مطلقا بل نقيد ذلك بقيود ونضبطه بضوابط تضمن لنا غلبه الظن في الوصول إلى الحق، وتحفظ كتاب الله من الأهواء والخوض فيه بغير علم، وضمن هذه الضوابط هنالك شروط لا بد من توفرها فيمن يتصدى للتفسير العقلي، وهنالك علوم يجب أن يَبْرع فيها، وهنالك آداب لا بد من التحلي بها، كما هنالك محظورات يجب عليه أن يتجنبها. عندها يقول في القرآن بما يهديه إليه عقله ويفوض أمره إلى الله. وبهذا المنهج نكون قد وفقنا بين رأي من منع خوفا من التقول على الله بغير علم، وبين رأي من أجاز مطلقا وقدم العقل على النقل، ولعل هذا هو المنهج الوسط الذي يدعوا إليه الشرع في كل الأحكام والله تعالى أعلم.

* * *

المراجع

– إسماعيل ، فاطمة إسماعيل محمد، القرآن والنظر العقلي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٣ / ١٩٩٣ .

– الألوسي، محمود أفندي بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، لبنان، ١٤٠٨ / ١٩٨٧.

– البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة أبو عبد الله (المتوفى : ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، حسب ترقيم فتح الباري، دار الشعب – القاهرة، الطبعة : الأولى ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

– البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (٤٥٨)، السنن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤

– الترمذي، محمد بن عيسى، جامع الترمذي، بيت الأفكار الدولية

– ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، كتاب الموضوعات، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٣٨٦ / ١٩٦٦.

– الجويني، مصطفى الصاوي، مناهج في التفسير، منشأة المعارف بالإسكندرية.

– الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، (ومعه تعليقات الذهبي في التلخيص)، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠.

– الخازن، على بن محمد (٧٢٥هـ) لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٩٩٥

– الخضري، محمد، تاريخ التشريع الإسلامي، دار العصماء، الطبعة الثانية، ٢٠٠١

– الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، الطبعة الثانية، ١٩٧٦

– الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، الذرية إلى مكارم الشريعة، تحقيق أبوا ليزيد العجمي، دار الوفاء، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ / ١٩٨٧.

– الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد أحمد خلف الله، مكتبة الإنجلو مصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٠.

– الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مقدمة جامع التفاسير، تحقيق أحمد فرحات، دار العودة الكويت، ط، ١٩٨٤.

– الرومي، فهد عبد الرحمن، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، دار البحوث والإفتاء في السعودية ط ١٩٨٦
– الرومي، فهد عبد الرحمن، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مؤسسة الرسالة، ط ١٤٠٧هـ
– الزجاج، إبراهيم السرّي، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨ / ١٩٨٨.
– الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
– الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢٠٠١.
– الزمخشري، محمود بن عمر (٥٢٨)، الكشاف، دار الريان للتراث، الطبعة الثالثة ١٩٨٧
– السبكي، تاريخ التشريع الإسلامي، دار العصماء، الطبعة الثانية ٢٠٠١
– السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر، الإتقان في علوم القران تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧
– الشاطبي، إبراهيم بن موسى (٧٩٠)، الموافقات، تحقيق خالد عبد الفتاح شبل، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط ١٩٩٩
– الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية،لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩
– العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ / ١٩٨٥.
– العراقي، عبد الرحيم بن الحسين، المغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، على هامش إحياء علوم الدين للغزالي، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ / ١٩٩٢.
– العقاد، عباس محمود، التفكير فريضة إسلامية، دار النهضة، القاهرة.
– العك، خالد عبد الرحمن، دار النفائس بيروت، ط ١٩٨٦
– الغزالي، محمد بن محمد، (٥٠٥)، إحياء علوم الدين، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، الأولى ١٩٩٢
– الغزالي، محمد بن محمد، (٥٠٥)، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١ / ١٩٨١.
– الفارس، علي بن بلبان (٧٣٩) الإحسان في تقريب صحيح بن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩١

– الفراء، يحي بن زياد، معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل وعلي النجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢

– الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب،القاموس المحيط،المؤسسة العربية للطباعة والنشر(دار الجيل)، بيروت.

– القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن أحمد، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦.

– القرطبي، محمد بن احمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق محمد الحفناوي وآخرون، دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى، ١٩٩٤

– المحتسب، عبد المجيد عبد السلام،اتجاهات التفسير في العصر الراهن،دار النهضة الإسلامية عمان ط، ١٩٨٠.

– المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي.

– النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٤٥ / ١٩٩٥

– النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢.

– بلتاجي، محي الدين، دراسات في التفسير وأصوله، مكتبة الهلال، الطبعة الأولى، ١٩٨٧

– ابن تيمية، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيق: موسى سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

– ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم(٧٢٨هـ) ، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة محمد سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

– ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الكويت، ط، ١٩٧١.

– جولد تسهر، اجنتس مذاهب التفسير الإسلامي، تقديم عبد الحليم النجار، دار لأقرا ط، ١٩٨٥

– ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (المتوفى : ٨٥٢هـ)، فتح الباري، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٧

– ابن حجر، العسقلاني، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ .١٩٨٩م.

– ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

– حمزة، عمر يوسف، أصول التفسير ومناهجه، مكتبة الأقصى، قطر، ط، ١٩٩٥
– أبو حيان، محمد بن يوسف (٧٥٤هـ) البحر المحيط، دار الفكر، ١٩٩٢
– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار العلم للجميع، لبنان.
– داوود، سليمان بن الأشعث (٢٧٥هـ)، سنن أبي داوود، بيت الأفكار الدولية.
– رضا، محمد رشيد (١٩٣٥م)، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، (١٩٩٩)
– ابن سينا، الحسين بن عبد الله، تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، طبعة دار الخان الميرزا (مطبعة هندية)، ١٩٠٨.
– طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن، المكتبة الإسلامية، الثالثة ١٩٨٧
– عاشور، فوزية، الاتجاه العقلي في تفسير المنار، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، ١٩٩٠
– ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.
– ابن عربي (٦٣٨)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، ١٩٨٧
– عزقول، كريم، العقل في الإسلام، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٤٦.
– ابن عطية الأندلس، عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق عبد الله الأنصاري وآخرين، طبعة دولة قطر، الطبعة الأولى ١٩٨٤
– فرغل، يحيى هاشم، العقيدة الإسلامية بين الفلسفة والعلم، مكتبة المكتبة، أبو ظبي والعين.
– فريد، أحمد فريد صالح، التفسير بالرأي وموقف العلماء من اتخاذه منهجا في التفسير، بحث منشور في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد ٢١ (أ) العدد (٤)، ١٩٩٤
– قطب، سيد، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، الطبعة السابقة ١٩٨٢
– محمود، عبد الحليم، التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، مصر.
– مسلم بن الحجاج، (٢٦١)، صحيح مسلم، ترقيم محمد بن نزار وهيثم بن نزار لبنان، دار الأرقم، الأولى ١٩٩٩.
– ابن منظور، جمال بن مكرم، لسان العرب، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٢ / ١٩٩٢.

* * *